

تميز جنس الجنين بينة علمية على الوحي

Embryo Gender Differentiation

A Scientific Evidence For revelation

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد؛ إجابةً على التساؤل: (في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَهُ لَه شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الأعراف ١٨٩ و١٩٠؛ إذا كان المراد من (نفس واحدة) آدم عليه السلام فكيف يسلك مسير الشرك وهو من الأنبياء المصطفين، وإذا كان السياق يتعلق ببيان نشأة الجنسين ويعني حالة غير متميزة الجنس يمر بها كل إنسان وهو جنين هي مبتدأ الزوجين؛ الذكر والأنثى، فيدفع اتهام نبي كريم بالشرك؛ فهل يؤيد علم الأجنة هذا الوجه؟؛ أقول مستعينا بالعلي القدير سائله تعالى التوفيق والسداد:

(١) بينة علمية على الوحي:

في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَهُ لَه شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الأعراف ١٨٩ و١٩٠؛ شاع في التفسير نقل حمل التعبير بالتأنيث والتنكير (نفس واحدة) على آدم عليه السلام وحمل التعبير الدال على مذکر (زوجها) و(تغشاها) على زوجته، وقد استشكل هذا الوجه فضلا عن اتهام نبي كريم بالشرك، ولذا ورد عن الأعلام حمل السياق على تكون الجنسين وحمل (نفس واحدة) على الهيئة الإنسانية؛ يعني خلال التخليق قبل اتضاح علامات الذكورة، والحقيقة بالفعل هي أن علامات الذكورة لا تتضح إلا مع نشاط الخصيتين بعد حوالي ثمانية أسابيع ولذا تسمى المرحلة قبل تميز الجنس بمرحلة عدم تميز الجنس Gender Indifferent Stage، وتتأكد تماما مظاهر الذكورة Masculinity في بداية الشهر الثالث نتيجة لإفراز هرمون الذكورة Testosterone من الخصيتين طبقا لتعليمات المورثات Chromosomes الحاملة لبرنامج تكوين الإنسان المقبل وتقدير جنسه؛ وإلا تأكد التأنيث Feminization في الشهر الرابع واستمر الجنين بنسق هيئة التأنيث المفترضة ابتداءً Default mode، وبهذا يترجح قول المحققين وتحقق المطابقة التامة مع الحقيقة العلمية الغائبة زمن التنزيل ولعصور طويلة تلت؛ فضلا عن دفع تهمة الشرك كليا عن نبي نال كل تكريم في الكتاب العزيز، وبدون الاضطرار إلى التكلف وتلمس الأعداء كحمل النكرة على علم وحمل ضمير التأنيث على مذکر والعكس.



بدء تميز جنس الجنين الذکر من حالة غير متميزة الجنس وظهور العضو الجنسي الذكري بعد انتهاء الأسبوع الثامن.

(٢) خلاصة نفيسة تؤكد إمكان تعلق الآية ببيان تميز جنس الجنين:

قال فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين المتوفى سنة ١٤٢١ هـ (رحمه الله تعالى) في فتاويه بتحقيق فهد بن ناصر السليمان (ج ١٠/ص ٧٤-٨٤): "تجد المرأة التي لا يأتيها الولد تأتي إلى قبر الولي الفلاني..، فنقول: يا سيدي فلان أرزقتي ولدًا..، وفي قوله: **{فلما آتاها}** نقد لادع أن يجعلها في هذا الولد شريكا مع الله..، و(لكن).. الآية وحدها دالة على أن قوله **{خلقكم من نفس واحدة}** أي من جنس واحد وليس فيها تعرض لأدم وحواء بوجه من الوجوه، ويكون السياق فيهما جاريا على الأسلوب العربي الفصيح الذي له نظير في القرآن كقوله تعالى: **{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ}**؛ أي من جنسهم، وبهذا التفسير الواضح البين يسلم الإنسان من إشكالات كثيرة، أما على القول.. بأن المراد بقوله تعالى **{من نفس واحدة}**.. آدم **{وجعل منها زوجها}** حواء فيكون معنى الآية خلقكم من آدم وحواء..، وهذا التفسير منطبق على المروي عن ابن عباس رضي الله عنه، وسنبين إن شاء الله تعالى وجه ضعفه وبطلانه، وهناك قول ثالث أن المراد بقوله تعالى **{من نفس واحدة}** أي آدم وحواء، **{فلما تغشاها}**: انتقل من العين إلى النوع؛ أي من آدم إلى النوع الذي هم بنوه..، (وعلى هذا فأول الآية في آدم وحواء ثم صار الكلام من العين إلى النوع، وهذا التفسير له وجه وفيه تنزيه آدم وحواء من الشرك لكن فيه شيء من الركافة لتشتت الضمائر)، وأما قوله تعالى **{فتعالى الله عما يشركون}** فجمع لأن المراد بالمتنى اثنان من هذا الجنس فصح أن يعود الضمير إليهما مجموعاً، كما في قوله تعالى: **{وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا}** ولم يقل اقتتلتا لأن الطائفتين جماعة، و(أما المروي) عن ابن عباس في الآية قال: (لما تغشاها آدم حملت فاتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة؛ لتطيعاني أو لأجعلن له قرني أيل..، سمياه عبد الحارث، فأبيا أن يطيعانه فخرج ميتاً)..، وذكر معناه عن الحسن، لكن الصحيح أن الحسن رحمه الله قال: إن المراد بالآية غير آدم وحواء، وإن المراد بها المشركون من بني آدم، كما ذكر ذلك ابن كثير رحمه الله في تفسيره وقال: (أما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته)، وهذه القصة باطلة من وجوه؛ (الوجه الأول): أنه ليس في ذلك خبر صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم، وهذا من الأخبار التي لا تتلقى إلا بالوحي، وقد قال ابن حزم عن هذه القصة إنها رواية خرافة مكذوبة موضوعة، (الوجه الثاني): أنه لو كانت هذه القصة في آدم وحواء لكان حالهما إما أن يتوبا من الشرك أو يموتا عليه، فإن قلنا ماتا عليه كان ذلك أعظم من قول بعض الزنادقة..، فمن جوز موت أحد من الأنبياء على الشرك فقد أعظم الفرية، وإن كانا تابا من الشرك فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما ولا يذكر توبتهما منه، فيمتنع غاية الامتناع أن يذكر الله الخطيئة من آدم وحواء وقد تابا ولم يذكر توبتهما، والله تعالى إذا ذكر خطيئة بعض أنبيائه ورسله ذكر توبتهم منها كما في قصة آدم نفسه حين أكل من الشجرة وزوجه وتابا من ذلك، (الوجه الثالث): أن الأنبياء معصومون من الشرك باتفاق العلماء، (الوجه الرابع): أنه ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم يطلبون منه الشفاعة فيعتذر بأكله من الشجرة وهو معصية؛ ولو وقع منه الشرك لكان اعتذاره به أقوى وأولى وأحرى، (الوجه الخامس): أن في هذه القصة أن الشيطان جاء إليهما وقال: (أنا صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة)، وهذا لا يقوله من يريد الإغواء وإنما يأتي بشيء يقرب قبول قوله، فإذا قال: (أنا صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة) فسيعلمان علم اليقين أنه عدو لهما فلا يقبلان منه صرفاً ولا عدلاً، (الوجه السادس): أن في قوله في هذه القصة (لأجعلن له قرني أيل) إما أن يصدقا أن ذلك ممكن في حقه فهذا شرك في الربوبية لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله، أو لا يصدقا فلا يمكن أن يقبل قوله وهما يعلمان أن ذلك غير ممكن في حقه، (الوجه السابع): قوله تعالى: **{فتعالى الله عما يشركون}** بضمير الجمع؛ ولو كان آدم وحواء لقال (عما يشركان)، فهذه الوجوه تدل على أن هذه القصة باطلة من أساسها وأنه لا يجوز أن يعتقد في آدم وحواء أن يقع منهما شرك بأي حال من الأحوال، والأنبياء منزهون عن الشرك مبرؤون منه باتفاق أهل العلم، وعلى هذا فيكون تفسير الآية كما أسلفنا أنها عائدة إلى بني آدم الذي أشركوا شركاً حقيقياً؛ فإن منهم مشركاً ومنهم موحداً".

وفي الحقيقة قد أعفك فضيلته (رحمه الله تعالى) من دوامة الحيرة في التفسير بمختلف المدارس ومنحك الثمرة ناضجة بجرأة وحسم المحققين وتحرر تام من التقليد في خلاصة نفيسة تؤكد أن الآية تحكي قصة تكون جنسي الجنين في النوع الإنساني مما يتفق مع الحقيقة الراسخة اليوم في علم الأجنة؛ وهي أن الذكورة عملية خلق يتحول فيها البدن المونث شكلاً الغير مؤكد الجنس وإلا تأكد التأنيث من بعد، وقد كان بودي أن أجول بك عبر العصور في خواطر الأعلام لتدرك كم بذلوا في تحرير الدلالة، ولكني سأعفيك بدوري من العناء تأسياً بالشيخ الكريم وأتخير لك من بساتينهم ثمرات تُحرر الدلالة جليّة قبل أن تُوكدها اليوم الحقيقة العلمية؛ لتشهد للقرآن الكريم بالوحي وتقطع بصدق نبوة خاتم النبيين عليه الصلاة وأتم التسليم.

(٣) تاريخ مجيد للمفسرين في تحرير الدلالة:

قال أبو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ (معاني القرآن ج٣ ص١١٦): "قال تعالى {فتعالى الله عما يشركون}..، أي عما يشرك الكفار، ويدل على هذا {أيشركون ما لا يخلق شيئاً} يعني الأصنام، وروي عن عكرمة أنه قال لم يخص بهذا آدم وحواء وحدهما، والتقدير على هذا الجنس كله؛ أي خلق كل واحد منكم {من نفس واحدة} و{جعل منها} أي من جنسها زوجها، {فلما تغشاها} على الجنس كله، وكذا {دعوا} يراد به الجنسان الكافران، ثم حمل {فتعالى الله عما يشركون} على معنى الجميع، فهذا أولى والله أعلم من أن ينسب إلى الأنبياء عليهم السلام مثل هذا"، (ج٥ ص١٥١): "المعنى خلق لكم من جنسكم أزواجاً..، ومثله قوله جل وعز {هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها}..، أي جعل من جنسها زوجها، ودل هذا على الجنسين جميعاً، ويكون الضمير في قوله تعالى {جعل له شركاء فيما آتاهما} يعود على الجنسين، والضمير في قوله {يشركون} يعود على الجنسين لأنهما جماعة"، ولذا (إعراب القرآن ج١ ص٤١٣): "قيل: هو الذي خلقكم من نفس واحدة ومن هيئة واحدة وشكل واحد، وجعل منها زوجها؛ أي من جنسها، {فلما تغشاها} يعني الجنسين، وعلى هذا القول لا يكون لآدم وحواء في الآية ذكر"، وقال أبو إسحاق الثعلبي المتوفى سنة ٤٢٧ هـ في تفسيره (ج٥ ص٤٩٤): "قال قوم من أهل العلم إن هذا راجع إلى المشركين من ذرية آدم وإن معناه جعل أولادهما له شركاء..، ويدل عليه ما روى معمر عن الحسن قال: عني بهذا من أشرك من ذرية آدم ولم يكن يعني آدم، وروى قتادة عنه قال: هم اليهود والنصارى..، وقال ابن كيسان: هم الكفار جعلوا لله شركاء..، وقال عكرمة: لم يخص بها آدم ولكن جعلها عامة لجميع بني آدم..، قال الحسين بن الفضل: وهذا محبب إلى أهل النظر لما في القول الأول من إلصاق العظام بنبي الله آدم عليه السلام، ويدل عليه جمعه في الخطاب حيث قال {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} ثم قال {فَلَمَّا تَغَشَّاهَا}؛ انصرف من ذلك الخطاب إلى الخبر يعني فلما تغشى الرجل منكم امرأته"، وقال السمعاتي المتوفى سنة ٤٨٩ هـ في تفسيره (ج٢ ص٢٠٩): "جعل له شركاء فيما آتاهما}..، هذا في جميع بني آدم، قال عكرمة: وكان الله يخاطب به كل واحد من الخلق بقوله: {هو الذي خلقكم من نفس واحدة} يعني: خلق كل واحد..، {وجعل منها زوجها} أي جعل من جنسها زوجها {ليسكن إليها}؛ يعني كل زوج إلى زوجته..، وهذا قول حسن في الآية"، وقال ابن عطية المتوفى سنة ٥٤١ هـ في المحرر الوجيز (ج٣ ص١٣٤): "قال قوم إن المعنى في هذه الآية التبيين عن حال الكافرين فعدد النعم التي تعم الكافرين وغيرهم من الناس..، وذلك أنه قال مخاطباً لجميع الناس {هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها}..، فهذه نعمة تخص كل أحد..، ثم جاء قوله: {فلما تغشاها} إلى آخر الآية وصفاً لحال الناس واحداً واحداً..، فإذا آتاهم الله الولد صالحاً سليماً كما (أرادوا) صرفاه عن الفطرة إلى الشرك..، قال القاضي أبو محمد..: جاء قوله: {فلما تغشاها} إلى آخر الآية وصفاً لحال الناس واحداً واحداً..، (وقد) يُقال إن الآية.. في آدم وحواء..؛ أطاعا إبليس في التسمية بعبد الحارث..، وأسند الطبري في ذلك حديثاً من طريق سمرة بن جندب..، (و) قوله تعالى: {فتعالى الله عما يشركون}.. كلام منفصل ليس من الأول.. يراد به مشركوا العرب، (ولكن) قال القاضي أبو محمد: وهذا تحكم لا يساعده اللفظ..، (و) الآية.. إنما الغرض منها تعديد النعمة في الأزواج وفي تسهيل النسل والولادة..، (و) قوله {فتعالى الله عما يشركون} المراد بالضمير فيه المشركين، والمعنى في هذه الآية فلما أتى الله هذين الإنسائين صالحاً أي سليماً ذهباً به إلى الكفر..، وهي بينة على هذا التأويل الأخير، وقلقة على قول من يقول إن الآية الأولى في آدم وحواء..، وذكر الطبري في قصص حواء وآدم وإبليس في التسمية بعبد الحارث.. أشياء طويلة".

وقال القاضي ابن العربي المتوفى سنة ٥٤٣ هـ في أحكام القرآن (ج ٤ ص ٥٩): "قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}..؛ في المعنى بها.. قولان، (أحدهما): أن المراد بذلك حواء الأم الأولى..، لما ولدت في حديث طويل سمته عبد الحارث بإشارة إبليس بذلك عليها وكان اسمه.. الحارث، فذلك قوله تعالى: {جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا}، وذلك مذكور ونحوه في ضعيف الحديث في الترمذي وغيره، وفي الإسرائيليات كثير ليس لها ثبات ولا يعول عليها من له قلب؛ فإن آدم وحواء وإن كانا عرهما بالله الغرور فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، وما كانا بعد ذلك ليقبلا له نصحا ولا يسمعا منه قولاً، (الثاني): أن المراد بهذا جنس الأدميين فإن حالهم في الحمل وخفته وثقله (كذلك)..، وإذا خفت عليهم الحمل استمروا به؛ فإذا ثقل عليهم نذروا كل نذر فيه، فإذا ولد لهم ذلك الولد جعلوا فيه لغير الله شركاء..، حتى إن منهم من ينسب إلى الأصنام، ويجعله لغير الله..، وهذا القول أشبه بالحق وأقرب إلى الصدق، وهو ظاهر الآية وعمومها الذي يشمل جميع متاولاتها ويسلم فيها الأنبياء عن النقص الذي لا يليق بجهال البشر فكيف بساداتهم وأنبيائهم".

وقال الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ في تفسيره (ج ٢ ص ٣١-٣٥): "قوله تعالى: {لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}..؛ الآية على جميع التقديرات تدل على أن النبي لا يكون مذنباً..، (وقد تمسكوا بالطعن في اعتقاد آدم عليه السلام بقوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا}..؛ قالوا: لا شك أن النفس الواحدة هي آدم وزوجها المخلوق منها هي حواء..، فقوله: {جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ} يقتضي صدور الشرك عنهما، والجواب: لا نسلم أن النفس الواحدة هي آدم وليس في الآية ما يدل عليه..، (و) التكليف بالتقوى غير مختص بأهل مكة بل هو عام في حق جميع العالمين، وإذا كان لفظ الناس عاما في الكل وكان الأمر بالتقوى عاما في الكل وكانت علة هذا التكليف وهي كونهم خلقوا من النفس الواحدة عامة في حق الكل كان القول بالتخصيص في غاية البعد..، (و) اختيار أبي مسلم الأصفهاني أن المراد من قوله: {وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا} أي من جنسها، وهو كقوله تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا} وكقوله: {إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ} وقوله: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ}..، فلما ثبت أنه تعالى قادر على خلق آدم من التراب كان قادرا أيضا على خلق حواء من التراب، وإذا كان الأمر كذلك؛ فأى فائدة في خلقها من ضلع من أضلاع آدم؟!، (و) (ج ٧ ص ٣٢٩): "المروي.. {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}.. هي نفس آدم {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} أي حواء خلقها الله من ضلع آدم عليه السلام..، {فَلَمَّا تَعَسَّاهَا} آدم {حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَلَمَّا أَنْثَلَتْ} أي ثقل الولد في بطنها آتاه إبليس في صورة رجل وقال: ما هذا يا حواء إني أخاف أن يكون كلباً أو بهيمة..، {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا} أي لما آتاهما الله ولداً سوياً صالحاً جعل له شريكاً؛ أي جعل آدم وحواء له شريكاً..، واعلم أن هذا التأويل فاسد ويدل عليه وجوه: (الأول): أنه تعالى قال: {فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}؛ وذلك يدل على أن الذين أتوا بهذا الشرك جماعة، (الثاني): أنه تعالى قال بعده: {أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ}؛ وهذا يدل على أن المقصود من هذه الآية الرد على من جعل الأصنام شركاء لله تعالى..، (الثالث): لو كان المراد إبليس لقال: (أيشركون من لا يخلق شيئاً) ولم يقل (ما لا يخلق شيئاً) لأن العاقل إنما يذكر بصيغة (من) لا بصيغة (ما)، (الرابع): أن آدم عليه السلام كان أشد الناس معرفة بابليس وكان عالماً بجميع الأسماء كما قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} فكان لا بد وأن يكون قد علم أن اسم إبليس هو الحرث فمع العداوة الشديدة التي بينه وبين آدم ومع علمه بأن اسمه هو الحرث كيف سمي ولد نفسه بعبد الحرث! وكيف ضاقت عليه الأسماء حتى أنه لم يجد سوى هذا الاسم!، (الخامس): أن الواحد منا لو حصل له ولد.. فجاءه إنسان ودعاه إلى أن يسميه بمثل هذه الأسماء لزجره وأنكر عليه أشد الإنكار؛ فآدم عليه السلام مع نبوته وعلمه الكثير.. وتجاربه الكثيرة التي حصلت له بسبب الزلة التي وقع فيها لأجل وسوسة إبليس كيف لم ينتبه لهذا القدر وكيف لم يعرف أن ذلك من الأفعال المنكرة التي يجب على العاقل الاحتراز منها!، (السادس): أن بتقدير أن آدم عليه السلام سماه بعبد الحرث، فلا يخلو إما أن يقال إنه جعل هذا اللفظ اسم علم له، أو جعله صفة له..، فإن كان الأول لم يكن هذا شركاً بالله لأن أسماء الأعلام والألقاب لا تفيد في المسميات فائدة..، وإن كان الثاني كان هذا قولاً بأن آدم عليه السلام اعتقد أن الله شريكاً في الخلق والإيجاد والتكوين وذلك يوجب الجزم بتكفير آدم؛ وذلك لا يقوله عاقل، فثبت بهذه الوجوه أن هذا القول فاسد ويجب على العاقل المسلم أن لا يلتفت إليه، إذا عرفت هذا فنقول: في تأويل الآية وجوه صحيحة سليمة خالية عن هذه المفساد، (التأويل الأول): ما ذكره القفال فقال: إنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم وقولهم بالشرك، وتقدير هذا الكلام كأنه تعالى يقول: هو الذي خلق كل واحد

منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه في الإنسانية، فلما تغشى الزوج زوجته وظهر الحمل دعا الزوج والزوجة ربهما لنن آتيتنا ولداً صالحاً سوياً لكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك، فلما آتاها الله ولداً صالحاً سوياً جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاها، لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبايع كما هو قول الطبايعين، وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين، وتارة إلى الأصنام والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام، ثم قال تعالى: **{فتعالى الله عما يشركون}**؛ أي تنزه الله عن ذلك الشرك، وهذا جواب في غاية الصحة والسداد، (التأويل الثاني): بأن يكون الخطاب لقريش..، (التأويل الثالث): أن نسلم أن هذه الآية وردت في شرح قصة آدم عليه السلام وعلى هذا التقدير ففي دفع هذا الإشكال وجوه..، **{فتعالى الله عما يشركون}** أي تعالى الله عن شرك هؤلاء المشركين الذين يقولون بالشرك وينسبونه إلى آدم عليه السلام..، (أو) نقول..: **{جعل له شركاء}** أي جعل أولادهما له شركاء..، لأن (أولادهما) قسما ذكر وأنثى، فقوله **{جعلاً}** المراد منه الذكر والأنثى؛ مرة عبر عنهما بلفظ التنثية لكونهما صنفين ونوعين ومرة عبر عنهما بلفظ الجمع وهو قوله تعالى: **{فتعالى الله عما يشركون}**..، (و) قيل: إنه تعالى لما آتاها الولد الصالح عزما على أن يجعله وقفاً على خدمة الله وطاعته وعبوديته على الإطلاق ثم بدا لهم في ذلك، فتارة كانوا ينتفعون به في مصالح الدنيا ومنافعها وتارة كانوا يأمرونه بخدمة الله وطاعته..، وعلى هذا التقدير فالإشكال زائل..، (أو) سموا بعبد الحرث لأجل أنهم اعتقدوا أنه إنما سلم من الآفة والمرض بسبب دعاء ذلك الشخص المسمى بالحرث، وقد يسمى المنعم عليه عبداً للمنعم..، فآدم وحواء عليهما السلام سميا ذلك الولد بعبد الحرث تنبيهاً على أنه إنما سلم من الآفات ببركة دعائه، وهذا لا يقدح في كونه عبد الله من جهة أنه مملوكه ومخلوقه..، فلما حصل الاشتراك في لفظ العبد لا جرم صار آدم عليه السلام معاتباً في هذا العمل بسبب الاشتراك الحاصل في مجرد لفظ العبد، فهذا جملة ما نقوله في تأويل هذه الآية..، (و) قوله: **{نفس واحدة}** المشهور أنها.. آدم، وقوله: **{وجعل منها زوجها}** المراد حواء..، خلقها من ضلع من أضلاع آدم..، وأقول هذا الكلام مشكل لأنه تعالى لما كان قادراً على أن يخلق آدم ابتداءً فما الذي حملنا على أن نقول أنه تعالى خلق حواء من جزء أجزاء آدم!، ولم لا نقول: إنه تعالى خلق حواء أيضاً ابتداءً!، وأيضاً الذي يقدر على خلق إنسان من عظم واحد فلم لا يقدر على خلقه ابتداءً!، وأيضاً الذي يقال: إن عدد أضلاع الجانب الأيسر أنقص من عدد أضلاع الجانب الأيمن فيه مؤاخذه تنبي عن خلاف الحس والتشريح، بقي أن يقال..: فما المراد من كلمة **{من}** في قوله: **{وجعل منها زوجها}**؟! فنقول..: ليس المراد بذلك الفرد المعين بل المراد بذلك.. النوع..، والمراد خلق.. من النوع الإنساني (زوجها الذكر)..، إنساناً (مثلها)، (و) قوله: **{فلما تغشاها}**..؛ الغشيان إتيان الرجل المرأة.. إذا علاها.. (فزوجها هو نفسه الذي تغشاها)، (أو) يعني آدم وحواء..، هذا إذا حملنا هذه الآية على (هذه) القصة المشهورة، أما إذا لم نقل (بها) فلا حاجة إلى التأويل".

وقال القرطبي المتوفى سنة ٦٧١ هـ في تفسيره (ج٧ص٢٩٧): "قال قوم إن هذا راجع إلى جنس الآدميين والتبيين عن حال المشركين من ذرية آدم عليه السلام؛ وهو الذي يعول عليه، فقوله: **{جعل له}** يعني الذكر والأنثى الكافرين ويعنى به الجنسان، ودل على هذا **{فتعالى الله عما يشركون}** ولم يقل يشركان، وهذا قول حسن، وقيل المعنى **{هو الذي خلقكم من نفس واحدة}** من هيئة واحدة وشكل واحد **{وجعل منها زوجها}** أي من جنسها، **{فلما تغشاها}** يعني الجنسين، وعلى هذا القول لا يكون لآدم وحواء ذكر في الآية، فإذا آتاها الولد صالحاً سليماً سوياً كما أراداه صرفاه عن الفطرة إلى الشرك فهذا فعل المشركين..، قال عكرمة: لم يخص بها آدم ولكن جعلها عامة لجميع الخلق بعد آدم، وقال الحسين بن الفضل: وهذا محبب إلى أهل النظر لما في القول الأول من المضاف من العظام بنبي الله آدم".

وقال النيسابوري المتوفى سنة ٧٢٨هـ في تفسيره (ج٤ص٤٤): "قال {هو الذي خلقكم من نفس واحدة}؛ والمروي عن ابن عباس أنها نفس آدم..، قال مجاهد: كان لا يعيش لآدم وامرأته ولد فقال لهما الشيطان: إذا ولد لكما ولد فسمياه عبد الحرث، وكان اسم إبليس.. الحرث..، وذلك قوله..: {جعلاً} يعني آدم وحواء {له شركاء}.. (إلى) تمام القصة، وقد زيفها النقاد..، ولا قائل بإمكان نسبته إلى آدم، فعند ذلك ذكر العلماء في تأويله وجوهاً، أحدها: أن هذا مثل؛ فكأنه تعالى يقول (هو الذي خلقكم)؛ أي كل واحد منكم (من نفس واحدة) وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه في الإنسانية يسكن أي تلك النفس، فذكر بعدما أنث.. لأن الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويضمن إليها..، {دعوا} أي الزوج والزوجة..، فقالوا {لئن آتينا صالحاً} ولداً قد صلح بدنه.. ذكراً..، لأن الذكورة.. (أقصى مطلب مُعتاد)"، وفي تفسير التسهيل لابن جزي المتوفى سنة ٧٤١هـ (ج١ص٤٣٣): "{جعلاً له شركاء فيما آتاها}: أي لما آتاها ولدا صالحاً كما طلبا جعل أولادهما له شركاء..، (و) قيل إن حواء لما حملت جاءها إبليس وقال لها إن أطعني وسميت ما في بطنك عبد الحارث فسأخلصه لك وكان اسم إبليس الحارث وإن عصيتني في ذلك قتلته..، فعصته فمات الولد ثم حملت مرة ثالثة فسمياه عبد الحارث طمعا في حياته، فقوله جعلاً له شركاء فيما آتاها أي في التسمية لا غير لا في عبادة غير الله، والقول الأول أصح لثلاثة أوجه؛ أحدها أنه يقتضي براءة آدم وزوجه من قليل الشرك وكثيره، وذلك هو حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والثاني أنه يدل على أن الذين أشركوا هم أولاد آدم وذريته لقوله تعالى {فتعالى الله عما يشركون} بضمير الجمع، والثالث أن ما ذكروا من قصة آدم وتسمية الولد عبد الحارث يفتقر إلى نقل بسند صحيح وهو غير موجود في تلك القصة، وقيل من نفس واحدة.. من قريش، و(لكن) الظاهر أن الخطاب عام لبني آدم"، وقال ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ في كتابه روضة المحبين (ج١ص٢٨٩): "اللدان جعلاً له شركاء فيما آتاها (هم) المشركون..، ولا يلتفت إلى غير ذلك ممّا قيل إن آدم وحواء كانا لا يعيش لهما ولد فاتاها إبليس فقال إن أحببتما أن تعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث ففعلاً، فإن الله سبحانه اجتباه وهداه فلم يكن ليشارك به بعد ذلك!"، وفي تفسير قوله تعالى {بأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً} النساء ١؛ قال ابن عادل المتوفى بعد سنة ٨٨٠هـ (ج٥ص٥): "عن ابن عباس في قوله: {بأيها الناس} أن هذا الخطاب لأهل مكة..، وأما الأصوليون من المفسرين فاتفقوا على أن الخطاب عام لجميع المكلفين، وهذا هو الأصح؛ لأن لفظ الناس جمع دخله الألف واللام فيفيد الاستغراق، ولأنه علل الأمر بالاتّقاء لكونه تعالى خالق لهم من نفس واحدة، وهذه العلة موجودة في جميع المكلفين، وأيضاً فالتكليف بالتقوى غير مختص بأهل مكة بل هو عام، وإذا كان لفظ الناس عاماً والأمر بالتقوى عاماً وعلة هذا التكليف عامة فلا وجه للتخصيص"، وقال (ج٨ص٨٤): "قال ابن عباس: المراد بالنفس الواحدة آدم عليه الصلاة والسلام، {وخلق منها زوجها} أي حواء خلقها الله من ضلع آدم عليه الصلاة والسلام..، قال ابن الخطيب: وهذا مشكل؛ لأنه تعالى لما كان قادراً على خلق آدم ابتداء فما الذي يحملنا على أن نقول خلق حواء من جزء من أجزاء آدم ولم نقل إنه تعالى خلق حواء أيضاً ابتداء!، وأيضاً فالقادر على خلق الإنسان من عظم واحد لم لا يقدر على خلقه ابتداء!، وأيضاً فقولهم إن عدد أضلاع الجانب الأيسر من الذكر أنقص من عدد أضلاع الجانب الأيمن بشيء واحد على خلاف الحس والتشريح..، وإذا عرف ذلك فنقول..: {وجعل منها زوجها} أي: وخلق من نوع الإنسان زوج..، إنساناً (مثلها)، {فلما نغشاها حملت}..: وهو أول ما تحمل المرأة من النطفة"، وقال (ج٨ص٨٦): "روي عن ابن عباس؛ قال: (كانت حواء تلد.. فيصيبهم الموت، فاتاها إبليس وقال: إن سرّك ما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث؛ فولدت فسمياه عبد الحارث فعاش)..، واعلم أن هذا التأويل فاسد..، قال القفال رحمه الله إنه تعالى ذكر هذه القصة على سبيل ضرب المثل وبيان أن هذه الحالة صورة حال هؤلاء المشركين..، كأنه تعالى يقول: هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجها إنساناً (يساويها) في الإنسانية..، (و) قوله {أيشركون ما لا يخلق شيئاً}: هذه الآية من أقوى الدلائل على أنه ليس المراد بقوله تعالى: {فتعالى الله عما يشركون} ما ذكروه في قصة إبليس إذ لو كان المراد ذلك لكانت هذه الآية أجنبية عنها بالكلية وكان ذلك النظم في غاية الفساد، بل المراد ما ذكرناه.. من أن المقصود.. الرّد على عبدة الأوثان؛ لأنه أراد هاهنا إقامة الحجّة على أن الأوثان لا تصلح للإلهية، فقوله {أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلفون}؛ أي أيعبدون ما لا يقدر على أن يخلق شيئاً وهم يخلفون، يعني الأصنام".

وقال الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ في تفسيره (ج٢ ص٤٠٠): "قال جماعة من المفسرين إن الجاعل شركا فيما آتاهما هم جنس بني آدم كما وقع من المشركين منهم؛ ولم يكن ذلك من آدم وحواء..، وذهب جماعة من المفسرين إلى أن معنى {من نفس واحدة} من هيئة واحدة وشكل واحد، {وجعل منها زوجها} أي من جنسها، {فلما تغشاها} يعني جنس الذكر جنس الأنثى؛ وعلى هذا لا يكون لآدم وحواء ذكر في الآية وتكون ضمائر التثنية راجعة إلى الجنسين".

وقال الألوسي المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ في تفسيره (ج٩ ص١٤٠): "(عاد) قوله سبحانه وتعالى {فتعالى الله عما يشركون} إلى الجميع، ولا تعلق للآية بآدم وحواء عليهما السلام أصلا..، (و) اختار ابن المنير.. هذا..، وهو أن يكون المراد جنسي الذكر والأنثى..، ثم قال: وكان المعنى والله تعالى أعلم: هو الذي خلقكم جنسا واحدا وجعل أزواجكم منكم أيضا..، فلما تغشى الجنس الذي هو الذكر الجنس الذي هو الأنثى جرى من هذين الجنسين كيت وكيت، وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإن كان فيهم الموحدون لأن المشركين منهم، فجاز أن يضاف الكلام إلى الجنس على طريقة قتل بنو تميم فلانا وإنما قتله بعضهم، ومثله قوله تعالى: {ويقول الإنسان أنذا ما مت لسوف أخرج حيا} و{قتل الإنسان ما أكفره} إلى غير ذلك".

وقال الشيخ مناع القطان المتوفى سنة ١٤٢٠ هـ (رحمه الله تعالى) في تفسيره (ج٢ ص٩٣): "دعا الزوج والزوجة ربهما قائلين: والله لئن رزقتنا ولدا سليما تام الخلقة لنكونن من الشاكرين..، ونالا ما طلبا لكنهما جعلا الأصنام شركاء في عطيته الكريمة..، والله وحده هو المستحق لذلك..، وهناك بعض الروايات المأخوذة من الإسرائيليات تنسب هذه القصة لآدم وحواء؛ وهذا خلط وتخريف"، ويكفي هذا القدر ليترسخ لديك اليقين بإمكان حمل التعبير (نفس واحدة) على أصل الجنسين.

(٤) مآثر علماء الحديث وفقهاؤه في التحقيق:

حتى لا يكون تحرير دلالات القرآن الكريم من ركام التقليد ضرب من التعسف والمجازفة لابد من الدليل بالتحري والتحقيق، قال ابن كثير (رحمهم الله تعالى أجمعين) في تفسيره (ج٣ ص٥٢٤): "قال تعالى: {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} ذكر المفسرون هاهنا آثارا وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها..، قال الإمام أحمد في مسنده..: عن الحسن عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ولما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره)، وهكذا رواه ابن جرير..، ورواه الترمذي.. وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه..، والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه، (أحدها): أن عمر بن إبراهيم هذا.. (وإن) وثقه ابن معين ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به..، (الثاني): أنه قد روي من قول سمرة نفسه ليس مرفوعاً، كما قال ابن جرير..، (الثالث): أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه، قال ابن جرير..: عن الحسن: {جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا}؛ قال: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم..، (و) قال الحسن: عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده..، (و) عن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى..، وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رحمه الله أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عدل عنه هو ولا غيره ولا سيما مع تقواه لله وَوَرَعَهُ، فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب..، فأما الآثار.. عن ابن عباس..، (مثل): (فسميا ولدهما عبد الحارث)..، وكأته والله أعلم أصله مأخوذ من أهل الكتاب..، فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب كما رواه ابن أبي حاتم..، وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب..، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا..، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته؛ ولهذا قال الله: {فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}."

وفي تحقيق الحديث: (لما حملت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبد الحارث، فسمته: عبد الحارث فعاش..). قال الألباني المتوفى سنة ١٤٢٠ هـ في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١/٥١٦): "ضعيف؛ أخرجه الترمذي (١٨١/٢) والحاكم (٥٤٥/٢) وابن بشران في الأمالي (٢/١٥٨) وأحمد (١١/٥) وغيرهم من طريق عمر بن إبراهيم عن قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب مرفوعا، وقال الترمذي: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، قلت: وليس كما قالوا، فإن الحسن في سماعه من سمرة خلاف مشهور، ثم هو مدلس، ولم يصرح بسماعه من سمرة، وقال الذهبي في ترجمته من الميزان: كان الحسن كثير التدليس، فإذا قال في حديث: عن فلان ضَعَفَ احتجاجه، قلت: وأَعْلَهُ ابن عدي في الكامل (١٧٠/١٣) بتفرد عمر بن إبراهيم وقال: وحديثه عن قتادة مضطرب..، ومما يبين ضعف هذا الحديث الذي فُسِّرَ به قوله تعالى {فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء}.. الآية؛ أن الحسن نفسه فسر الآية بغير ما في حديثه هذا، فلو كان عنده صحيحا مرفوعا لما عدل عنه، فقال في تفسيرها: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم، ذكر ذلك ابن كثير (ج٢ ص٢٧٤ و٢٧٥) من طرق عنه، ثم قال: وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حُمِلَتْ عليه الآية".

(٥) قرآن السياق هي المرجع الوثيق لتحرير الدلالة في التفسير الموضوعي:

سياق تكون الزوجين وتميز الجنسين متعلق بتخليق الجنين، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى. أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِّنْ مَّنِي يَمْنَى. ثُمَّ كَانَ عَقَّةً فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ القيلة ٣٦-٣٩، وقال تعالى ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى. مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ النجم ٤٥، ٤٦، وبالفعل تبدأ مراحل خلق الإنسان بتكون الحويين المنوي عند الأب لأن جميع بويضات الأم مكونة أساسا وهي جنين، وتميز جنس الجنين تلك الخلية الجنسية الذكرية Male Gamete المماثلة لقطيرة واحدة من ماء عديد القطيرات؛ وإن تكونت من الأبوين الخلية البشرية الأولى Zygote أو النطفة الأمشاج في تعبير القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ الإنسان ٢؛ أي أشبهه بقطيرة لكنها مختلطة التركيب من مكونات وراثية من الأبوين نسميها اليوم كروموزومات Chromosomes، وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ الحجرات ١٣، قال القرطبي (ج١٦ ص٣٤٢ و٣٤٣): "بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ مِنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى.. وَقَدْ ذَهَبَ قَوْمٌ مِنَ الْأَوَائِلِ إِلَى أَنَّ الْجَنِينَ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ مَاءِ الرَّجُلِ وَحْدَهُ، وَيَتْرَبِي فِي رَحِمِ الْأُمِّ وَيَسْتَمِدُّ مِنَ الدَّمِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ..، وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْخَلْقَ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ مَاءِ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ لِهَذِهِ الْآيَةِ؛ فَإِنَّهَا نَصٌّ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ"، وتكوّن الأزواج وتميز الجنسين في الأرحام عملية تخص كل جنين وتتبع تكون النطفة في بيان صريح للقرآن الكريم؛ يقول العلي القدير: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ ثَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ فاطر ١١، وبالمثل سياق التعبير (نفس واحدة) في القرآن الكريم متعلق بتكون الجنين في الأرحام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ النساء ١.

وفي كل الثدييات Mammals يتكون الزوجان؛ الذكر والأنثى، بنفس كيفية تكون جنين الإنسان من نفس واحدة، وتَعَجَّبَ أَنْ يَسْتَطِرِدَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ خِلَالَ بَيَانِهِ لِكَيْفِيَّةِ تَمْيِزِ جِنْسِ الْإِنْسَانِ فِي الْبَطُونِ وَيَقْرَنُ بَيْنَهُمَا وَكَأَنَّهُ يَدْعُوكَ لِلتَّحَرِّيِ عَنِ دَلَالَةِ الْوَحْيِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ نُمَائِيَّةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقَكُمْ فِي بَطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى تَصْرِفُونَ﴾ الزمر ٦؛ وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الشورى ١١؛ وفي التفسير (يَذُرُّكُمْ فِيهِ): أي يخلقكم فتنتشروا بتكاثركم كما الأنعام خلانف نسلا بعد نسل في هذا الجعل أزواجًا، أي: بجعلكم أزواجًا من الجنسين؛ ذكرا وأنثى، وهو كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي نَزَّلَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ المؤمنون ٧٩، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي نَزَّلَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الملك ٢٤، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ خِلَافَ فِي الْأَرْضِ﴾ فاطر ٣٩، وكما ترى يُخْبِرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَنِ تَنَاسُلِ الْإِنْسَانِ كخليفة نسلا بعد نسل من نفس واحدة هي أصل الجنسين ولا تعلق بآدم وحواء بوجه من الوجوه.

(٦) دلائل النبوة الخاتمة تسطع باليقين في عصر العلم:

لك أن تسأل: لِمَ للذكر حَمَتَان وهو لا يُرضع؛ قد ينموان Gynecomastia لِعَلَّةِ كاضطراب الهرمونات ليمائل الثديان الأنثى؟؛ ويجيبك المختصون بأنها إحدى علامات تشهد بالأصل المشترك غير متميز الجنس Indifferent stage أو النفس الواحدة الهيئة التي تفرع منها الجنس؛ الذكر والأنثى، وما العبرة من خوض القرآن في مسائل علمية لم يكن لأحد قبل عصرنا بها اهتمام؟؛ ويجيبك التنبيه عقب كل آيات التكوين ليلفتك لغرض التوحيد وبيان قدرة العليّ وعظمته؛ وإلا فلا مفر من المعضلة: فمن حاكّ إذن كل هذا الوجود المُذهل بعلم واقتدر؛ فلا يصلح مخلوق ولا صدفة عمياء عند النبهاء كتفسير!؛ وكيف يخدم تميز الجنسين من نفس واحدة هذا الغرض؟؛ تَأَمَّلْ تكامل الجنسين تشريحياً ووظيفياً ونفسياً تُدرِك الغرض.



وعند بداية ظهور علامات الذكورة يكون طول الجنين من قمة رأسه إلى مقعدته يقارب إصبع، ولا تتضح تفاصيله ويُعرف جنسه قبل ذلك إلا بوسائل حديثة كالمجهر الذي لم يُعرف إلا في القرن السابع عشر، فكيف يُخص القرآن الكريم في القرن السابع الميلادي جنس الذكر بلفظ (الخلق) الذي يعني الإنشاء ولفظ (الجعل) الذي يعني التحويل؛ وذلك من حالة غير متميزة واحدة في الجنسين يجعلها السياق هي نفسها جنس الأنثى الذي يتغشاهما زوجها الذكر من بعد لتنتج الذرية من الجنسين وتتضاعف الأجيال بنفس الكيفية لتملأ الأفاق!؛ ولا تفسير سوى أن أنباء القرآن الكريم لم تصنعها قريحة بشر، ولا تبحث عن مثل أنباء الغيب تلك في أي كتاب يُنسب للوحي غير القرآن الكريم، فلن تجد في الجملة سوى تاريخ وأماني شعب، قال أبو حيان الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥ هـ في تفسيره (ج٤ ص١٠): "قال

الأصم: لا يدل العقل على أن الخلق مخلوقين {من نفس واحدة}؛ بل السمع، ولمّا كان صلى الله عليه وسلم أمياً ما قرأ كتاباً كان معنى {خلقكم} دليلاً على التوحيد و{من نفس واحدة} دليلاً على النبوة"، ولك إذن أن تجزم بيقين أن هذا الكتاب الكريم وحي من عند العليم وحده تعالى بكل أسرار الخلق؛ والتي تكشف منها الأيام كل حين ما يكون آية بيّنة على الوحي، يقول العليّ القدير: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. وَتَعَلَّمْنَ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ص ٨٧ و٨٨، وحينما تتحقق أنباء الغيب وتُعَين في الواقع تنزوي الحيرة ويستقر التأويل لتسطع براهين الوحي للنابهيّن، يقول العليّ القدير: ﴿لَكُلِّ نَبِيٍّ مَسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الانعام ٦٧.

ولك إذن أن تدرك مَنْ عَنَى يحيي (يوحنا المعمدان) عليه السلام في أسفار الكتاب الأسبق بالمُنْتَظَرِ المُؤَيَّدِ بالبينات في قوله ليهود عصره (متى ١٣ / ١-١١): "تُوبُوا لِأَنَّهُ قَدْ أَقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ.. مَنْ أَرَاكُمْ أَنْ تَهْرَبُوا مِنَ الْعَصَبِ الْآتِي..، الْآنَ قَدْ وُضِعَتِ الْفَأْسُ عَلَى أَصْلِ الشَّجَرِ، فَكُلُّ شَجَرَةٍ لَا تَصْنَعُ ثَمَرًا جَيِّدًا تَقْطَعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ، أَنَا أَعْمِدُكُمْ بِمَاءِ النَّوْبَةِ وَلَكِنْ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي هُوَ أَقْوَى مِنِّي الَّذِي لَسْتُ أَهْلًا أَنْ أَحْمِلَ حِدَاءَهُ"، إن شق عليك الجواب فسَيُعِينُكَ قول معاصره المسيح عيسى عليه السلام لنفس اليهود بالمثل مُفَسِّرًا مَثَلِ الشَّجَرَةِ الْجَدِيدَةِ الْمُثْمَرَةِ هذا بمثل آخر يعرفه البناؤون في عصره لآخر سلسلة النبوات وأعلى حجر في البناء؛ وهو حجر الزاوية على رأس القنطرة فوق الأبواب أو القوس المعماري الروماني، ومصرحاً بالمضمون نصاً لمن لا يستطيع الفهم (متى ١٢١ / ٤٢-٤٤): "أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ فِي الْكُتُبِ: الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ، مَنْ قَبِلَ الرَّبَّ كَانَ هَذَا وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا، لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَلَكُوتَ اللَّهِ يَنْزِعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَى لِأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ؛ وَمَنْ سَقَطَ عَلَى هَذَا الْحَجَرِ يَتَرَضُّضُ وَمَنْ سَقَطَ هُوَ عَلَيْهِ يَسْحَقُهُ".

د. محمد دودح

الباحث العلمي بالهيئة العالمية

للإعجاز العلمي في القرآن والسنة

برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة

mdoudah@hotmail.com

المراجع في التفسير:

١. معاني القرآن للفراء يحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ.
٢. معاني القرآن للأخفش سعيد بن مسعدة أبو الحسن المعروف المعروف بالأخفش الأوسط البصري مولى بني مجاشع بن دارم بطن من تميم والمتوفى سنة ٢١٥ هـ.
٣. مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني أبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المتوفى سنة ٥٠٢ هـ.
٤. تذكرة الأريب في تفسير الغريب لعبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي البكري المعروف بأبي الفرج ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ.
٥. التبيان في تفسير غريب القرآن لابن الهانم شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عماد بن علي الهانم المصري المتوفى سنة ٨١٥ هـ.
٦. مفردات القرآن لعبد الحميد الفراهي المتوفى سنة ١٣٤٩ هـ.
٧. كلمات القرآن لحسنين محمد مخلوف المتوفى سنة ١٤١٠ هـ.
٨. التعقبات المفيدة على كتاب كلمات القرآن تفسير وبيان لحسنين محمد مخلوف المتوفى سنة ١٤١٠ هـ تأليف د. محمد بن عبد الرحمن الخميس كلية الشريعة الجامعة الأردنية عمان.
٩. شرح الكلمات وما ترشد إليه الآيات للشيخ محمد غازي الدروبي.
١٠. تنوير المقباس من تفسير ابن عباس المتوفى سنة ٦٨ هـ والمنسوب لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي المتوفى سنة ٨١٧ هـ.
١١. تفسير مجاهد بن جبر المخزومي التابعي أبو الحجاج المتوفى سنة ١٠٤ هـ.
١٢. تفسير مقاتل بن سليمان بن بشر الأزدي المتوفى سنة ١٥٠ هـ.
١٣. تفسير سفيان الثوري لسفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله المتوفى سنة ١٦١ هـ.
١٤. تفسير الصنعاني لأبي بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني المتوفى سنة ٢١١ هـ.
١٥. التفسير من سنن سعيد بن منصور المتوفى سنة ٢٢٧ هـ.
١٦. صحيح البخاري جزء التفسير محمد بن اسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي المتوفى سنة ٢٥٦ هـ.
١٧. سنن الترمذي جزء التفسير محمد بن عيسى ابو عيسى الترمذي السلمي المتوفى سنة ٢٧٩ هـ.
١٨. تفسير الطبري جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ.
١٩. تفسير ابن أبي حاتم لأبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي المتوفى سنة ٣٢٧ هـ.
٢٠. معاني القرآن لأبي جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الاسلامي جامعة أم القرى مكة المكرمة.
٢١. تفسير بحر العلوم لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي المتوفى سنة ٣٧٣ هـ.
٢٢. تفسير ابن أبي زمنين لمحمد بن عبد الله بن أبي زمنين المري المتوفى سنة ٣٩٩ هـ.
٢٣. الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبي إسحاق الثعلبي المتوفى سنة ٤٢٧ هـ.
٢٤. تفسير الماوردي النكت والعيون لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري الشهير بالماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ.
٢٥. تفسير الواحدي الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لعلي بن أحمد الواحدي أبو الحسن المتوفى سنة ٤٦٨ هـ.
٢٦. تفسير السمعاني لأبي المظفر منصور بن محمد السمعاني المتوفى سنة ٤٨٩ هـ.
٢٧. مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار لأبي حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ.
٢٨. تفسير البغوي معالم التنزيل لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي المتوفى سنة ٥١٦ هـ.
٢٩. تفسير الكشاف لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله المتوفى سنة ٥٣٨ هـ.
٣٠. المحرر الوجيز لابن عطية أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبد الرحمن ابن تمام بن عطية المحاربي المتوفى سنة ٥٤١ هـ.
٣١. تفسير ابن الجوزي زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ.
٣٢. تفسير الرازي التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ.
٣٣. حول تفسير الفخر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ للشيخ عبد الرحمن بن يحيى بن علي المعلمي.
٣٤. تفسير عز الدين ابن عبد السلام الشافعي المتوفى سنة ٦٦٠ هـ.
٣٥. تفسير القرطبي لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي المتوفى سنة ٦٧١ هـ.
٣٦. تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي المتوفى سنة ٦٩١ هـ.
٣٧. تفسير النسفي مدارك التنزيل وحقائق التأويل لعبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين أبو البركات النسفي المتوفى سنة ٧١٠ هـ.
٣٨. دقائق التفسير لابن تيمية أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني أبو العباس المتوفى سنة ٧٢٨ هـ.
٣٩. رسائل ابن تيمية في التفسير لابن تيمية أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني أبو العباس المتوفى سنة ٧٢٨ هـ.
٤٠. تفسير النيسابوري غرائب القرآن ورجائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري المتوفى سنة ٧٢٨ هـ.
٤١. تفسير التسهيل لابن جزي محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي المتوفى سنة ٧٤١ هـ.
٤٢. تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيعي البغدادي المعروف بالخازن والمتوفى سنة ٧٤١ هـ.
٤٣. تفسير أبي حيان الأندلسي البحر المحيط لمحمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي الغرناطي النفري المتوفى سنة ٧٤٥ هـ.
٤٤. التفسير القيم لابن القيم لابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ جمعه الشيخ محمد أويس الندوي.
٤٥. تفسير السمين الحلبي الدر المصون في علوم الكتاب المكنون لشهاب الدين أبو العباس أحمد بن يوسف بن محمد بن مسعود المعروف بالسمين الحلبي والمتوفى سنة ٧٥٦ هـ.
٤٦. جزء في تفسير الباقيات الصالحات لأبي سعيد خليل بن كيلدي بن عبد الله العلاني ٧٦١ هـ.
٤٧. تفسير ابن كثير تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ.
٤٨. تفسير ابن عرفة لمحمد بن محمد ابن عرفة الورعني التونسي المالكي أبو عبد الله المتوفى سنة ٨٠٣ هـ.

٤٩. فتح الباري جزء التفسير لابن حجر أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ.
٥٠. الروايات التفسيرية في فتح الباري لابن حجر أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ تأليف الشيخ عبد المجيد الشيخ عبد الباري.
٥١. تفسير الثعالبي الجواهر الحسان في تفسير القرآن لعبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي المتوفى سنة ٨٧٦ هـ.
٥٢. تفسير ابن عادل اللباب في علوم الكتاب لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني المتوفى بعد سنة ٨٨٠ هـ.
٥٣. تفسير البقاعي نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥ هـ.
٥٤. تفسير السيوطي الدر المنثور في التأويل بالمأثور لعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ.
٥٥. تفسير أبي السعود إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لمحمد بن محمد العمادي أبو السعود المتوفى سنة ٩٥١ هـ.
٥٦. تفسير الخطيب السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير لمحمد بن محمد الخطيب الشربيني المتوفى سنة ٩٧٧ هـ.
٥٧. تفسير سور الفاتحة والإخلاص والمعوذتين للشيخ محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ.
٥٨. تفسير الشوكاني فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ.
٥٩. تفسير الألوسي روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني أبو الفضل الألوسي المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ.
٦٠. تفسير مراح لبيد لكشف معنى قرآن مجيد أو التفسير المنير لمحمد بن عمر نوي الجاوي المتوفى سنة ١٣١٦ هـ.
٦١. ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة لأبي المعالي محمود شكري بن عبد الله بن شهاب الدين الألوسي المتوفى سنة ١٣٤٢ هـ حفيد الألوسي المفسر أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ.
٦٢. تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر السعدي المتوفى سنة ١٣٧٦ هـ.
٦٣. تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن لعبد الرحمن بن ناصر السعدي المتوفى سنة ١٣٧٦ هـ.
٦٤. تفسير في ظلال القرآن لسيد قطب المتوفى سنة ١٣٨٦ هـ.
٦٥. التعريف بتفسير الطاهر بن عاشور المتوفى سنة ١٣٩٣ هـ للمهدي بن حميدة.
٦٦. تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور الشهير بالطاهر بن عاشور والمتوفى سنة ١٣٩٣ هـ.
٦٧. تفسير الشنقيطي أضواء البيان لمحمد الأمين بن محمد بن المختار الشنقيطي المتوفى سنة ١٣٩٣ هـ.
٦٨. تنمة أضواء البيان لمحمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي المتوفى سنة ١٣٩٣ هـ تأليف الشيخ محمد عطية سالم المتوفى سنة ١٤٢٠ هـ.
٦٩. دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب لمحمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي المتوفى سنة ١٣٩٣ هـ.
٧٠. من خواطر الشيخ محمد متولي الشعراوي المتوفى سنة ١٤١٩ هـ.
٧١. تفسير القطان للشيخ مناع خليل القطان المتوفى سنة ١٤٢٠ هـ.
٧٢. تفسير الشيخ محمد بن صالح العثيمين المتوفى سنة ١٤٢١ هـ.
٧٣. تفسير المنتخب لجنة من علماء الأزهر.
٧٤. الحجج البيئات في تفسير بعض الآيات للدكتور فريد مصطفى السلطان كلية الشريعة الجامعة الأردنية عمان.
٧٥. التفسير الوسيط للشيخ محمد سيد طنطاوي.
٧٦. جامع لطائف التفسير للشيخ عبد الرحمن القماش.
٧٧. تفسير جزء عم للشيخ مساعد الطيار.
٧٨. سلسلة التفسير للشيخ مصطفى العدوي.
٧٩. مختصر تفسير البغوي المتوفى سنة ٥١٦ هـ لعبد الله بن أحمد بن علي الزيد.
٨٠. تفسير الجلالين المحلي المتوفى سنة ٨٦٤ هـ والسيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ.
٨١. أنوار الهلالين في التعقبات على الجلالين المحلي المتوفى سنة ٨٦٤ هـ والسيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس.
٨٢. أيسر التفاسير لأسعد حومد.
٨٣. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير للشيخ أبو بكر الجزائري.
٨٤. التفسير الميسر عدد من أساتذة التفسير بإشراف الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي.
٨٥. أحكام القرآن للكيه الهراسي.
٨٦. الفرائض وشرح آيات الوصية لعبد الرحمن بن عبد الله السهيلي أبو القاسم.
٨٧. فتاوى فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين المتوفى سنة ١٤٢١ هـ.
- (ترقيم المكتبة الشاملة).